المشكلات

٨ ـ اللغة العربية

للأستاذ محمد عرفة

لماذا أخفقنا فى تعليمها ؟ — كيف نعلمها ؟

لا أريد أن أضع منهاجاً مفصلاً للطريقة الجديدة لتعليم اللغة العربية ، وإنما أريد أن أضع قواعد مجملة تتبع عند وضع هذا المنهاج ، وهذه مبنية على ما تقدم بحثه .

يجب أن يحذف درس القواعد من التعليم الابتدائى والأولى لأن القواعد كما قلنا لا تكسب ملكة اللغة وإنما هى فلسفة اللغة وضوابط ؛ فمن الواجب أن ننسى فى أن نكون للناشئ ملكة اللغة أولاً .

يجب أن نستبدل بالقواعد المطالعة الكثيرة والحفظ الكثير والمحادثة والمحاورة .

ويجب أن يختار للتلاميذ ما يحفظونه بحيث يكون مناسباً لأذهانهم لا يعلو عليها ، وتؤلف لهم محاورات يحفظونها ويتحاورون بها وتكون مما تكثر فى الكلام ويحتاج إليها فى الخطاب .

ويجب أن يعلم أن هذه المحفوظات تحفظ لتكون نموذجاً ذهنياً يقيس عليه كلامه من حيث لا يدرى فيجب أن يعنى بهذه النماذج فتحفظ صحيحة لا غلط فيها ، ومعربة لا لحن فيها ، فإنه إذا حفظها ملحونة ارتسم النموذج فى ذهنه كذلك ، فنسج على منواله ، وأنفق مما اكتسب . ويجب على المدرس أن يراعى تلاميذه ويعلم موطن الضعف فى لغتهم ويزودهم بما يزيل ضعفهم ، ويقوّم لسانهم ، فإن رأى منهم أنهم يجرون الفاعل فى أحاديثهم فليعلم أنهم بحاجة إلى أن يحفظوا كثيراً من المقطوعات فيها أمثلة كثيرة للفاعل ، وليأخذهم بحفظها صحيحة غير ملحونة .

أما مرحلة التعليم الثانوى فيجب أن يظل التعليم بالحفظ والمطالعة فيها ويزاد عليه قواعد اللغة ، ولكن ليست القواعد التى بين أيدى التلاميذ الآن ، بل القواعد التى سأقدم مشروعها ، والتى تجمع الصدق والوضوح والسهولة .

ويجب ألا تقل العناية بالحفظ والمطالعة فى هذه المرحلة بل يجب أن تزيد ، ويجب كما قلنا أن تؤلف لهم روايات تمثيلية أخلاقية يحفظون أدوارها ويقومون بتمثيلها .

ويجب كما قلنا أيضاً أن يكلف التلاميذ بنخل دواوين الأدب واختيار أحسن ما يقرؤون ، ثم يحفظ أحسن ما يختارون ، وأن تعطى درجات لمن قام بعمل ذاتى فى أيام العطلة الصيفية فى الحفظ والمطالعة .

أما مرحلة التعليم العالى فهى كمرحلة التعليم الثانوى فى الحفظ والمطالعة والقواعد ، ولكن يجب أن يتعمق فى درس هذه القواعد ، وفى بحث أصولها وفى الموازنة بين مذاهب العلماء فيها

فأما خلق جو عربى فى المدرسة أو فى دروس اللغة العربية خاصة لا يتكلم الطلاب والمدرسون فيه إلا باللغة العربية ، وتكليف التلاميذ بكتابة موضوعات ينشئونها فقد سبقت الإشارة إليها فيجب أن تدخل فى البرنامج الجديد لتعليم اللغة .

وينبغى أن يعلم أن تكليف التلاميذ بموضوعات ينشئونها ليس لغواً فى طريقتنا كما هو لغو فى الطريقة الأولى ، لأن الطريقة الأولى كانت تكلفهم الإنشاء وليست عندهم معان يكتبونها لقلة ما يطالعون وما يحفظون ، وليست عندهم ملكة اللغة العربية — أما فى الطريقة الحديثة فهى تكلفهم الإنشاء وعندهم معان خلقتها المطالعة والحفظ والاطلاع على آراء العلماء ، وهى تكافئهم وقد رسخت فى نفوسهم ملكة اللغة بالحفظ والمطالعة والحديث ، وسيسر ذلك المعلمين ويجعل الدرس لذيذاً لأنهم إذ يصححون كراسات التلاميذ فى الإنشاء لا يطلعون على لغو من القول يقذى العين وينثى النفس كما كان فى الماضى ؛ بل يطلعون على أقوال لها حرمتها ومكانتها إذ هى بنت المطالعة الكثيرة والدرس الطويل .

ذلك أسلوب نراه كفيلاً بكل ما نريد من رقى لغوى وبيانى لأنه كفيل بتكوين الملكات فى اللغة والبيان ، وبهذه الملكات تفهم اللغة وتتذوق أولاً ، وتفهم أصولها وقواعدها ثانياً ، ونراه كفيلاً أيضاً بامتاع المتعلم وإلذاذه ، وكفيلاً بفائدته وخيره .

فأما إمتاع التعليم بهذه الطريقة فإنها تعلم اللغة بآداب السالفين ، وحكم الماضين ، وبالأشعار البليغة ، والخطب الفصيحة ، وتواريخ الأمم ، وفى كل ذلك غذاء للعقل ، وإرضاء للقلب ، وإمتاع للعاطفة ؛ والمرء يسر ويأنس للخير القريب ،

والنادرة الطريفة ، والحكمة النافعة ، والمثل السائر ، والجواب المسكت ، والقول السديد ، والرأى الحميد ، وهذا كله جعل فى الطريقة الحديثة مادة لتعليم اللغة ، يطالع فيه ، ويحفظ منه ، والقول إن كان بليغاً ، والمعانى إذا كانت رائعة أنست بها النفوس ، وهشت لها ، ووجدت فيها المتعة واللذة

وأما الفائدة فأى فائدة أعظم من التأدب بآداب العلماء ، والاطلاع على حكمة الحكماء ، والانتفاع بتجارب ذوى التجارب ، وهذا كله جُعل فى طريق تعليم اللغة ، والكلمة الطيبة إذا نزلت بالنفس وعلقت بها واستوثقت منها ، وأيقنت بها ، فإنها تكون هادية ومرشدة ، ينتفع بها المرء فى غدوه ورواحه ، وصبحه ومسائه ، كما قال الله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها »

والمرء ما عاش بحاجة إلى الأدب الذى به تعمر القلوب ، وتزكو النفوس . قال عبد الله بن المقفع : (ولسنا إلى ما يمسك أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذى به تفاوت العقول . وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل . ولسنا بالكد فى طلب المتاع الذى يلتمس به دفع الضرر والغلبة بأحق منا بالكد فى طلب العلم الذى يلتمس به صلاح الدين والدنيا ،) وإن المرء قد يفيده الحرف من الأدب ويكون أرد عليه من جيش عرمرم . قال معاوية : لقد رأيتنى وأنا أهم بالفرار يوم صفين وما يمنعنى إلا قول الشاعر

وقولى كلما جشأت وجاشت ، مكانك تحمدى أو تستريحى

فأين من هذا كله القواعد وليس فيها متعة ولا لذة ، فليست عاطفية حتى تثير العاطفة والوجدان ، وليست عقلية حتى تكون فيها لذة المعقولات لمن اعتاد المعقولات ، إنما اللغة مواضعة واصطلاح ، وقواعد اللغة شرح وتفسير لهذا الاصطلاح ، وليس فيها إلا بعض علل عقلية ، وهذا مغمور وسط علل مدخولة ، وأسباب غير معقولة .

وكما أنها لا تثير لذة ، ولا تبعث متعة ، كذلك لا تحصل منها على فائدة . وما الفائدة منها وهى ليست حكمة ولا مثلاً ولا شرحا لقانون من قوانين الحياة ، وهى تبعد عن الحياة وتجاربها وعن محيطها الواسع ، وبحرها الجياش المضطرب ، وأن الذى يقرأ كتاباً فى القواعد كالأشمونى أو المطول ، يخرج منه ولم يستفد خبرة بالحياة ، بخلاف من يقرأ كتاباً كالكامل لأبى العباس المبرد ، أو البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فإنه يخرج منه بحكمة الدهور وعظة الأيام ، ومهما فاته فلن تفوته حكمة أو تجربة ، هى عصارة عصور ، وخلاصة دهور .

وما أظن الأمم الإسلامية منيت بما منيت به ، بعد العز والمنعة والقوة والصولة إلا من شغل علمائها وخاصتها طول عمرهم بكتب القواعد التى لا تكشف إلا عن طرف يسير جداً من هذا الكون الواسع ، أو بالحرى لا تكشف عن شىء إلا عن مواضعة واصطلاح وتفسير لهذه المواضعة وهذا الاصطلاح ، ومن انصرافهم عن هذا الكون الفسيح وعلومه ، وعلل حوادثه وأسبابها ، وشؤون النفوس وخواطرها ، وتزكيتها وتدسيتها

ما هذا الحظ العاثر ! قد جمع لنا المتقدمون أبواب الحكمة وتجارب الحياة ، وكانوا أحرص الناس على حفظها حتى ينتفع بها من بعدهم ، وكان حرياً بنا أن نغترف من هذه الموارد العذبة ، ونستقى من هذا السلسبيل الصافى ، فكان نصيب النافع منا الإعراض والنفور ، ونصيب غيره الإقبال عليه ، والكاف به

أى شىء أنفع وأجدى من حكم أفادها أصحابها بعد التجارب المرة ، والعثار والخيبة ، والتردى والسقوط ، وبعد النيل تارة ، والإخفاق تارات ، وبعد أن ذاقوا حلو الحياة ومرها ، وصفوها وشوبها ، فأفادتهم التجارب علماً ، فجمعوا هذا العلم فى جمل قصيرة ، وحروف قليلة ، لتكون أقل كافة ، وأيسر مؤونة ، ليسهل حفظها وادخارها إلى وقت الحاجة لينتفع بها

وهنا شىء أرى من الواجب على أن أنبه عليه ، وهو أن اسم الأدب أطلق كذباً وزوراً على تلك الأبيات من النسيب والغزل المذكر والمؤنث ، وعلى وصف الخمر ومجالس الشراب ، وعلى أبيات البطالة والعجز ، وعلى أخبار الفساق والمجان ، فيجب أن يتحرز من هذه ولا تدخل في مطالعات التلاميذ ومحفوظاتهم لأن تأثيرها على الأخلاق شديد ، وإفسادها للمروءات عظيم ، فكم من مستقيم أخرجه عكوفه على هذا الأدب الزائف عن استقامته ، وكم من جاد همه المعالى وعظائم الأمور صيره هذا الأدب الزائف مسفاً ضئيل الأمل . ولا يصح أن ينكر هذا كله ؛ فإن تأثير القول فى النفوس عظيم ، ونقضه للأسباب المتينة قوى . ويجب إذ آمنا بتأثير الكلمة الصالحة